التراجم فى الأدب الحديث

من السمات التى اتسم بها الأدب العصرى استفاضة التراجم والافتنان فى أساليب كتابتها وعرض صورها وسرد قصصها ، وكثرة الإقبال عليها وإيثارها على غيرها من فنون الأدب وألوان الإنشاء . وقد كان البريطانيون بحكم مزاجهم الفردى ، وما أتاحته لهم الظروف من معرفة صميمة بالنفس الإنسانية من أسبق الأمم إلى إجادة هذا اللون من ألوان الأدب ، ولا تزال بعض آثارهم فى هذا الفن منقطعة النظير فى تاريخ الآداب ، مثل ترجمة بوزويل لحياة جونسون التى لم تفقها حتى اليوم ترجمة فى صدق الأداء وقوة التصوير والجمع بين المزايا المختلفة ، ومنذ أوائل القرن العشرين أخذت تظهر فى مختلف الأمم المتحضرة طائفة من الكتاب تعنى بهذا الفن وتجيده إجادة تامة ، وتجدد فى أساليبه وتبدع فى نواحيه المختلفة ، وقد مثل هذه النزعة فى إنجلترا جماعة من الكتاب منهم هيلير بيلوك وسدنى دارك وغيرهما وعلى رأسهم المترجم العظيم ليتون استريتشى ، ومثلها فى ألمانيا باقتدار وتفوق ستيفان زفايج وإميل لدفج ، ومثلها فى فرنسا أندريه موروا ، وفى الأدب الروسى الحديث الروائى الممتاز والناقد النابغة مرزكوفسكى ، وفى الأدب الإسبانى مادر ياجا وأونامونو ، فماذا نعلل هذه الظاهرة الأدبية التى تسترعى الأنظار وتتطلب التحليل ، وإلى أى الأسباب ترد ؟ .

تلقاء هذه المشكلة الأدبية قد يتشعب البحث ، وتتكاثر الآراء والنظريات . ولعل أول سبب واضح معقول يتبادر إلى الذهن ويمكن أن نطمئن إليه فى تعليل

ذلك هو توفر « الموهبة الفردية » وأقصد بذلك ظهور جماعة من الكتاب أوتوا مقدرة خاصة وتفوقاً ملحوظاً فى معالجة هذا اللون من ألوان الأدب ، ولا ريب أن كل مظهر من مظاهر التجديد سواء فى الأدب أو فى أى ميدان آخر من ميادين النشاط الإنسانى مرده فى بادئ الأمر إلى هذه المزية الشخصية والموهبة الفردية ، ثم يشق طريقه ويؤثر تأثيره ، ويطبع الأذواق على غراره . ولكن المعروف كذلك أن الكاتب العبقرى يلبى حاجة عصره ويستلهم اتجاهه ونزعات تفكيره ، ومما يزيد العبقرى الموهوب توفراً على إتقان فنه ، والتأنق فى تجويده ، وجود ذوق عام يتقبل ما يعرض ويتجاوب مع تفكيره وإحساسه ، ولزفايج فى ذلك كلمة من كلماته اللامعة الكاشفة ، وهى قوله فى كتابه القيم عن الرحالة ماجلان : « تحدث العجائب عندما تلتقى عبقرية العصر وما صادفه كتاب التراجم من توفيق وإقبال منشؤه من ناحية ملكاتهم ومن ناحية أخرى جنوح عقلية العصر نحو هذا النوع من الأدب » .

وقد علل بعض نقاد الأدب وفرة الإقبال على التراجم بفتور الرغبة فى قراءة الروايات ، لشدة شعور القراء بذلك الشك الذى أخذ يخيم على الأدب الروائى فى العصر الحديث لتجافيه عن الحياة الواقعة وإمعانه فى الإغراب ، وقد فطن بعض كبار الروائيين لذلك ، وعملوا على علاجه بطريقتين مختلفتين ، فبعض عمد إلى حشد الروايات بالمسائل العلمية والتفكيرات الفلسفية إلى حد أخل فى بعض الأحيان ببنائها الفنى لأن جوهر الفن هو مزج « الفكرة » « بالصورة » أو إشراق الفكرة من خلال الصورة ، كما أوضح هجل فى كتابه القيم عن فلسفة الفنون ، واتجه بعض إلى معالجة ضروب مختلفة من الرمزية وألوان الصوفية ، ويستطيع القارئ البصير أن يتبين فى سهولة أن الذى ألجأهم إلى علاج هذا النوع الغريب الشاذ من الأدب الروائى هو نقص حيويتهم الفنية ، وتخلف

ملكاتهم الأدبية ، وهم يحاولون أن يستروا ذلك بضروب من التمويه وادعاء التعمق فى فهم حركات الوعى ، واستنباط دخائل العقل الباطن ، والاستناد إلى بعض المذاهب الفلسفية التى لم يخل لها بعد الجو ، ولا تزال تلقى مقاومة من أكثر الفلاسفة المعاصرين . وليس فى طوق القراء أن يسيغوا إنتاجهم إلا بعد أن تفسد ذوقهم السفسطة ، وتضللهم النظريات الزائفة «حتى يروا حسناً ما ليس بالحسن» .

وكأن الناس أصبحت ترى أن الاتصال بين «الفن» و«الحياة» فى التراجم أوثق وأصمن ، وأنها ملتقى الحق الفنى والحق التاريخى .

ومن ناحية أخرى هناك التقارب المستحدث بين منهج التراجم والأسلوب الروائى ، فى التراجم الحديثة متعة القصص وتشويق الرواية ، وبراعة النسج ، وإجادة السرد ، وتصوير الواقع وتفسير الحقيق ، وتقوم الترجمة فى صميمها على الوقائع المنتخلة ، ولكنها تنسقها تنسيقاً خاصًا ، وتصبها فى قالب معين ، وهى لا تدع الحقائق تتحدث عن نفسها ، وإنما تحتال فى دقة وحسن تأت على توجيه الحديث وتلوين الصورة . وتسد الفجوات ، متبعة مذهب الروائى فى حفظ التوازن والاتساق وتوزيع الظل والضوء .

وبراعة مترجمى العصر الحديث هى فى هذا الجمع بين التمحيص التاريخى والأسلوب الروائى ، والتدقيق فى اختيار الحوادث المرتبطة بحياة أبطالهم ، وربما كان الروائى أوفر حرية وطلاقة فى رسم شخصياته وسياق حوادثه ، لأن كاتب التراجم أمامه عقبات جمة لا معدى له عن أن يعمل على إزالتها من طريقه ، أخصها فكرتنا السابقة وحكمنا المتقدم على بطله وضرورة إقناعنا بتصويره الجديد وتفسيره الطريف .

هذه فى اعتقادى هى الأسباب الأدبية التى قد تعين على تفسير الميل إلى

تذوق التراجم والإقبال عليها ولكن الأسباب الأدبية المحضة لا تكفى وحدها ، وهى متصلة على الدوام بالأسباب الاجتماعية ، وللأحداث الاجتماعية والأنظمة السياسية والأحوال الاقتصادية تأثير لا يستهان به فى تكوين الأدب وتوجيه الفكر وإمداده بعناصر الحياة ، ولم يسرف الماركسيون فى الخطأ حينما قصروا الذوق الأدبى على التأثر بالحالة الاقتصادية ونظام الطبقات ، وجيلنا الحاضر جيل ديمقراطى بكل ما فى هذه اللفظة من خير وشر ، حتى فى الأمم التى تنكرت للديمقراطية وهى مع ذلك لا تزال تأخذ بأسبابها وتقتبس ما يلائمها من نظمها ، فهو جيل « كلبى النزعة » غير مخدوع ، ضعيف الإيمان بالمثل العليا ، وقليل الثقة بالنفس الإنسانية ، وهو ميال إلى التنقص والزراية ومطبوع على السخرية ، ولا يؤمن بالبطولة ، ولا يعتقد بما كان يسميه كارلايل « عبادة الأبطال » وقد علمته تجارب الحياة وأحوال العصر أن الدعاية المنظمة قد تخلق من الحبة قبة ، وتصنع من الرجل العادى الخامل بطلا مخلصاً أو كوكباً لامعاً على طريقة هوليود ، ففن صناعة الأبطال وخلق العبقريين قد أصبح فنًا مكشوفاً مبتذلا وطريقاً لا حباً مطروقا ، وقد كانت الشهرة فى الأزمنة السالفة بطيئة الخطوات عزيزة المنال ، ولكنها تأتى الآن فى مثل لمحة العين أو ومضة البرق ، وقد أصابت هذه الروح العابثة الساخرة مخرجاً ملائماً فى التراجم ، وهى تتخذ لذلك مظهرين : أحدهما العناية الفائقة بتوضيح سخافات المشاهير والأعيان وإحصاء هفواتهم وتتبع سقطاتهم ، والمظهر الآخر أسمى من ذلك قليلا وهو توجيه العناية إلى المذكرات والرسائل والاعترافات التى تصدر عن الأشخاص البارزين ، على أن من الإنصاف أن نقول إن هذه النزعة ليس مصدرها الوحيد هو حب الاستطلاع والرغبة فى التجسس على حياة العظماء والنظر من الثقوب إلى حياتهم الداخلية ، وإنما الميل الغالب إلى إنزال الأبطال من عليائهم وإحلالهم « سهل

الأباطح» وبعض السخرية الخفية المهذبة المتزنة المستعذبة التى تطالعنا من وراء سطور استريتشى هى خير ترياق للإفراط فى عبادة الأبطال والتفانى فى الشخصيات الكبيرة والدءوب على التهليل لها سواء أخطأت أو أصابت وحرق البخور أمامها ودق الطبول فى موكبها .

وكاتب التراجم الحديث لا يحفل بجلالة قدر العظماء ولا يسدر بصره ضخامة شهرتهم ، ولا يتخشع أمام هيبتهم ، ولا يسمو بهم إلى مراتب الآلهة والأرباب . ولا ينزههم من الأهواء والأخطاء . بل هو يسخر فى بعض المواقف منهم ويكشف عن الكثير من نواحى ضعفهم وصارخ متناقضاتهم ، فهو لايبعدهم عنا كثيراً ولا يفرق بيننا وبينهم ، ولا يحاول الخروج بهم من آفاق الإنسانية ، وهو يرينا كيف كانت تعصف بهم الشهوات وتميل بهم عن القصد . ولكنهم مع ذلك جاهدوا وكافحوا ولم يتراجعوا وينكصوا على الأعقاب ، وحققوا أغراضهم وانتهوا إلى غاياتهم . والدرس القيم الذى نفيده من التراجم الحديثة هو ألا نبتئس لضعفنا ولا نزدرى أنفسنا ، وألا يقعدنا عن تحقيق آمالنا المنشودة ما نلمحه فى نفوسنا من عيوب ونقائص وما نعلمه فى حياتنا من أسباب الإخفاق والتخلف ، والفرق بيننا وبين الأبطال والعظماء هو أنهم صبروا وصابروا واستعلوا على العقبات وراضوا الصعاب حتى أحرزوا النصر فى النهاية .

وعندما ساد مذهب داروين وغلب على الأفكار فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، صار المفكرون ينظرون إلى الفرد فى ضوء البيئة والوراثة ، واقتبس نقاد الأدب وكاتبو التراجم هذا الأسلوب وغلوافيه حتى كاد — فى بعض التراجم — يتضاءل المترجم له ويختفى ويصعب العثور عليه فى خلال العرض التاريخى لبيئته ، ولكن جاء فى أعقاب ذلك الأسلوب الحديث ، وهو

يعنى أكثر ما يعنى بالنظر إلى الفرد فى ذاته ودراسة شخصيته منفصلة عن حدود الزمان والمكان . وتأمل قواها المكنونة وبواعثها الدخيلة وما طرأ عليها من متباين العواطف والأزمات النفسية ، وقد قال فى ذلك إميل لدفج «كانت الناس تسأل فى أواخر القرن التاسع عشر : كيف لاءم الفرد بين نفسه وبين الدنيا . وأما الآن فأول ما نسأل : كيف لاءم الفرد بينه وبين نفسه ؟» فالمجهود الكبير الذى كان يبذل فى توصيف البيئة وتحليها وإظهار أثرها انتقل أكثره إلى الفرد فى ذاته والوقوف على دوافعه واستقراء أفكاره ، ومن ثم العلاقة الأكيدة فى العصر الحديث بين كاتبى التراجم ومذاهب التحليل النفسى ، وقد كان المترجمون يتحرجون من ذكر عادات الإنسان اليومية وبدوات نفسه ، وإذا أثبتوا شيئاً منها ذكروه وجلين مترددين فى استحياء أو على سبيل الأطروفة التى تجدد نشاط القارئ وتفتق شهيته ، وكانت تروى الأقاصيص فى شىء من التردد كأنها غير لائقة بجلال الترجمة ولا مناسبة لجدية الموضوع ، وهذه النظرة تخالف النظرة الحديثة التى تحاول أن تظهر الإنسان إنساناً لا أكثر ولا أقل ، فالعادة التافهة أو الكلمة العارضة قد تعين على تفسير جانب خفى من جوانب الأخلاق ، وتجلو ناحية غامضة من نواحى النفس ، وليس يكفى المترجم الحديث أن يكون وصافاً للبيئة ودارساً للعصر ، لأن هذا ليس بشىء إذا لم تنجده النظرة النافذة إلى أعماق السريرة والمعرفة الملهمة ، والجمع بين الإحساس الصادق والبصيرة النيرة .